الفصل الثاني
ماذا تعني الصّحبة؟

ذهب علماء الحديث في تعريف الصحابي مذهباً مختلفاً عن أهل الفقه والأصول ، فعرّف ابن كثير رحمه الله الصحابي بقوله:

(هو من رأىٰ رسول الله ﷺ في حال إسلام الرّائي ، وإن لم تطُل صحبته له ، وإن لم يرو عنه شيئاً)[1].

وجاء تفصيل ذلك أكثر بقولهم: هو من لقي النبي ﷺ يقظةً ، مؤمناً به ، بعد بعثته ، حال حياته ، ومات علىٰ الإيمان.

وزاد أهل الفقه والأصول علىٰ تعريف أهل الحديث بقولهم:

(وطالت صحبته ، وكثر لقاؤه به ، علىٰ سبيل التبع له ، والأخذ عنه ، وإن لم يرو عنه شيئاً).

ويتفرّع عن مسألة الصحبة عدّة نقاط ، أهمها:

أـ عدالة الصحابة:

عرّف الحافظ السيوطي العدالة بقوله: (هي ملكة ـ أي: هيئة راسخة في النفس ـ تمنع من اقتراف كبيرة ، أو صغيرة دالّة علىٰ الخسّة ، أو مباح يخلّ بالمروءة)[2].

لكن مسألة العدالة بين أخذٍ وردّ:

---

(١) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث: ٢/ ٤٩١.

(٢) الأشباه والنظائر في قواعد فروع الشافعية: ٤١٣ ـ ٤١٤.

فالمعتزلة يرون: (أن الصحابة كلهم عدول إلا من قاتل أمير المؤمنين علياً كرّم الله وجهه ولم يتب عن هذا الصنع)[1].

أما الشيعة فلهم رأي آخر، مفاده: (إن الصحابة قد ارتدّوا جميعاً بعد وفاة النبي ﷺ إلا ثلاثة ـ أي زيادة علىٰ آل البيت ـ وهؤلاء الثلاثة هم: سلمان الفارسي، والمقداد بن الأسود، وأبو ذر الغفاري.

ثم ذكر أن أربعة آخرين قد لحقوا بهم، وهم: عمار بن ياسر، وأبو سلمان الأنصاري، وحذيفة بن اليمان، وأبو عمرة، فصاروا سبعة)[2].

وأما أهل السنّة والجماعة فيرون:

(أن الصحابة كلهم عدولٌ عند أهل السنة والجماعة لما أثنى الله عليهم في كتابه العزيز، وبما نطقت به السنة النبوية في المدح لهم في جميع أخلاقهم وأفعالهم، وما بذلوه من الأموال والأرواح بين يدي رسول الله ﷺ، رغبةً فيما عند الله من الثواب الجزيل، والجزاء الجميل)[3].

ب ـ موقفنا مما جرىٰ بين الصحابة من مشاجرات واقتتال!!

رحم الله عمر بن عبد العزيز الذي سُئل عن ذلك، فقال: تلك دماءٌ طهّر الله يديَّ منها، أفلا أطهّر منها لساني؟!

ثم قال: مثل أصحاب رسول الله ﷺ مثل العيون، ودواء العيون ترك مسِّها[4].

ورحم الله جعفر الصادق حينما قال في ذلك:

---

(١) فواتح الرحموت لابن عبد الشكور: ٢/٥٦.
(٢) الاختصاص: ١٧.
(٣) الباعث الحثيث: ٢/٤٩٨.
(٤) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، للباقلاني: ٦٩ ـ ٧٠.

أقول ما قاله الله تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[1].

جـ ـ حكم سبّ أحد الصحابة!!

ذهب بعض العلماء ـ وعلى رأسهم ابن تيمية ، والنووي ، ومالك ، و... ـ إلىٰ أن من سبّ الصحابة ، يُتّهم بالفسق والضلال ، ويعزّر و... ، لكن لا يوصله ذلك إلىٰ الكفر.

وذهب البعض الآخر ـ وعلىٰ رأسهم القرطبي ، والرازي ، والسرخسي ، والحميدي و... ـ إلى أن من سبّ صحابة الرسول صلوات الله عليه ، أو انتقص في عدالتهم ، أو جاهر ببغضهم ، يكفر ، ويحلّ قتله؛ إلا أن يتوب!!

وذلك لأن اتهامهم بذلك يخالف المنهج القرآني والنبوي ، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2].

ومصداق ذلك قول النبي صلوات الله عليه: «لا تسبّوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده ، لو أن أحدكم أنفق مثل أحُد ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[3].

وقوله صلوات الله عليه: «إن الله اختارني ، واختار لي أصحاباً ، جعل لي منهم وُزراء وأنصاراً وأصهاراً ، فمن سبَّهم فعليه لعنة الله

---

(١) طه: ٥٢.

(٢) التوبة: ١٠٠.

(٣) صحيح البخاري: ٧/ ٢١ ، صحيح مسلم: رقمه (٢٥٤٠).

والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبلُ الله منه يوم القيامة صَرْفاً ولا عَدْلاً»[1].

د ـ هل هم متفاوتون في الفضل؟!

ذكر القرآن الكريم التفاضل بين أنبياء الله تعالى ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾[2].

وذكر مسألة تفضيل الزمان بعضه علىٰ بعض ، قال تعالى: ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾[3].

وكذلك المكان ، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾[4].

ونبّه البيان الإلهي إلىٰ أن التفضيل يجب أن لا يؤدي إلىٰ الحسد ونحو ذلك.

قال تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾[5].

وهناك خلاف بين العلماء في مسألة أفضلية الصحابة الكرام:

فالرأي الأول يتلخّص (بالإمساك عن الخوض في ذلك ، وتفويض الأمر إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ) وإلى ذلك ذهب الآلوسي وابن أبي الحديد. . . .

والرأي الثاني: (يجوز الخوض في بيان الأفضل من الصحابة

---

(١) أخرجه الطبراني (مجمع الزوائد: ١٠/ ١٧).
(٢) البقرة: ٢٥٣.
(٣) القدر: ٣.
(٤) آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧.
(٥) النساء: ٥٤.

الكرام) ، فأهل السنة يرون أن ترتيب الخلفاء الراشدين في الفضل كترتيبهم في الإمامة. . .[1].

هـ ـ ما هي أهم سمات الصحابة؟!

هناك طائفة من السمات والخصائص جعلت الصحابة الكرام يتبوؤن هذه المكانة المرموقة ، وقد ذكر العلامة وحيد الدين خان نماذج منها ، وذلك بقوله:

١ـ لقد أحبّ الصحابة الدّين أكثر من كل شيء.

٢ـ عرفوا الرسول ﷺ قبل شهادة التاريخ له.

٣ـ آمنوا في عهد الصّراع: حيث عانوا الأمرّين!

٤ـ أنفقوا أموالهم في سبيل دين لم يظهر شأنه بعد.

٥ـ آثروه علىٰ أنفسهم حتىٰ في السيادة.

٦ـ عرفوا حدودهم.

٧ـ تساموا عن الحقد والبغض.

٨ـ نصروا الدين أكثر مما بايعوا عليه.

٩ـ التركيز علىٰ الهدف والابتعاد عن الاختلاف.

١٠ـ اقتنعوا بالجلوس في مقعد خلفي.

١١ـ أعطوا الأمور قدرها وحقها.

١٢ـ ارتقوا ارتقاء الشجرة. . .[2].

زـ أفضلية الصحابة في القرآن والسنّة:

في كثيرٍ من آيات الكتاب العزيز ـ وفي أكثر من اثنتي عشرة سورة ـ

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي: ١١٨ ـ ١١٩.

(٢) للتوسع يراجع كتاب: قضية البعث الإسلامي لوحيد الدين خان: ٥٢ ـ ١٦٤

حديث مستفيض عن فضائل الصحابة ، من ذلك قوله تعالىٰ:

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾[1].

وفي كثير من الأحاديث النبوية حديث مستفيض عن فضائل الصحابة الكرام ، من ذلك قول النبي صلوات الله عليه: «ليبلّغ الحاضر الغائب ، الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً بعدي ، فمن أحبهم فبحبّي أحبّهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله ، يوشك أن يأخذه ، ومن يأخذه الله فيوشك أن لا يفلته»[2].

ورحم الله الشاعر حينما قال فيهم:

هم صحابة خير الخلق أيّدهم ... ربّ السماء بتوفيقٍ وإيثار
فحبّهم واجب يشفي السقيم به ... فمن أحبهم ينجو من النار[3]

* * *

(١) آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٤.
(٢) سنن الترمذي: رقمه (٣٨٦١).
(٣) للتوسع يراجع كتاب: فضائل الصحابة في ميزان الشريعة الإسلامية ، للمؤلف: ١٦٩ ـ ١٩٠.